المادة : فلسفة التاريخ History philosophy

المرحلة :الثالثة thirty stage

التدريسي: د اسماعيل مجبل حمد Dr. Ismael mejbel hamad

المحاضرة :الثالثة عشر Lecture therteen

عنوان المحاضرة / ارنولد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة

Arnold tuenby theory of challenge and responding

آرنولد توينبي ونظرية التحدي والاستجابة:

تستمد نظرية "توينبي" أهميتها من كونه قد عاش وعاصر مشاكل عصره العالمية، الأمر الذي يجعل من آراءه تفوق في حيويتها آراء غيره من فلاسفة التاريخ. وكذلك تستمد نظريته أهميتها من خلال عكوفه على دراسة العالم بأسره قديمة ووسيطه وحديثه طوال نصف قرن قضاها في البحث في أسباب نشوء الحضارات وعوامل موتها. ومما يزيد من أهمية نظريته هو تقييمه المتميز بالموضوعية لجميع الحضارات.

الأفكار الرئيسية في فلسفة "توينبي":

تقوم نظرية التحدي والاستجابة على مجموعة من الأفكار الرئيسية نرى من المناسب عرضها بشيء من الإيجاز الأمر، الذي قد يمكننا من امتلاك مادة أولية، من شأنها أن تيسر سبل الانطلاق في بحث نظرية "التحدي والاستجابة"، وهذه الأفكار هي التالية:

أولا: فكرة الأبوة والبنوة:

وتعني هذه الفكرة أن بعض الحضارات وليدة حضارات أخرى سابقة عليها، وبناء على ذلك يرى "توينبي" أن الحضارة الغربية الحديثة، هي وليدة الحضارة الهيلينية "اليونانية والرومانية"، وكذلك الحضارة الإسلامية هي نتاج اندماج المجتمعين العربي والإيراني، وهما بدورهما وليدا المجتمع السوري.

ومع ذلك فإن هذه الفكرة ليست قاعدة عامة تنطبق على كل الحضارات، حيث يرى "توينبي" أن هناك بعض الحضارات لا تنتمي بالبنوة إلى حضارات أخرى، كما أن هناك بعض الحضارات لا تجد من يأخذها كأب، ويقدم لنا" توينبي" مثالاً على ذلك، الحضارة المصرية القديمة، التي لم يكن لها أباء كما لم يكن لها أبناء، فليس للمجتمع المصري سلف ينتسب إليه، كما أنه ليس له خليفة.

ثانياً: فكرة المدنية المقابلة للبدائية :

إن المجتمع إما أن يكون مجتمعاً بدائياً أو متمديناً.وقد رأى "توينبي" أن غالبية المجتمعات هي بدائية، وهذه المجتمعات البدائية تكون صغيرة المساحة جغرافيا قليلة السكان قصيرة الأجل، تلقى نهايتها غالباً بطريقة عنيفة على يد مجتمع متمدين أو متبربر.أما المجتمعات المتمدينة أو الحضارية فهي أقل عدداً من المجتمعات البدائية وأوسع مساحة، وأكثر سكاناً من المجتمعات البدائية.

ثالثاً: فكرة أوقات الاضطراب:

يعني "توينبي" بفكرة أوقات الاضطراب، الفترة الفوضوية التي تأتي بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر، وفق مفهوم الأبوة والبنوة. ومن أبرز الأمثلة على هذه الفترة، العصور الوسطى المظلمة التي تقع بين وفاة الهيلينية، وقيام مجتمع غرب أوربا المسيحي، وهذه الفترة التي بلغ فيها العجز الهيليني أقصى مداه، فلما زحفت جحافل البرابرة على هذا العالم وجدوه جثةً هامدة تماماً.

رابعاً: فكرة البروليتاريا الداخلية :

ويقصد "توينبي" بالبروليتاريا الداخلية عامة الشعب الذي يشكل الطبقة المحرومة من حقوقه الشرعية، والذين لا يشعرون بأي انتماء إلى مجتمعهم، اللهم إلا بأجسادهم فقط. وهذا ما يدفعهم للخروج عن مجتمعهم، وقد يقدر لهم أن يصبحوا العنصر المهيمن على هذا المجتمع. وخير مثال على ذلك، الجماعة المسيحية التي ظهرت في وسط المجتمع الهيليني وقت أفول شمس الهيلينية.

ويضيف "توينبي" بأن الأحوال تدهورت حتى لم تعد الهيلينية سوى أقلية تضغط على البروليتاريا في عالمها السفلي، والبروليتاريا الداخلية في حالة الهيلينية هي الكنيسة المسيحية التي جعلت تتكون من تحت الأرض حتى قدر لها أن تبتلع الإمبراطورية كلها.

خامساً: فكرة البروليتاريا الخارجية:

تبرز البروليتاريا الخارجية للوجود مع بدء انهيار الحضارة، وذلك عندما يحدث الانشقاق ما بين البروليتاريا الداخلية والأقلية المسيطرة في حضارة آلت إلى الزوال.ويضرب لنا "توينبي" مثالاً على البروليتاريا الخارجية ، وهي حركة هجرة الشعوب المتبربرة التي كانت تهيم على وجهها وقت احتضار الحضارة الهلينية، ومن أمثلة هذه الشعوب القبائل الجرمانية التي كانت خاضعة لسلطان الحضارة اليونانية والرومانية الهلينية، ثم تحركت فوصلت وقت وفاة الحضارة الهلينية، ثم أقامت لنفسها ممالك على نفس التربة الهلينية.

سادساً: فكرة الدولة العالمية والكنيسة العالمية:

يذهب "توينبي" إلى أن الدولة العالمية، ظاهرة أساسية من الظواهر التي تنشأ عقب انهيار حضارةٍ ما، وتكون مهمتها على نحو دقيق حينذاك، هي تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعية، وهنا تتبع الدول سياسة "الوفاق الاجتماعي" بغية القضاء على نوعي الانقسام في المجتمع المتحلل، فتعمد إلى إنهاء الانقسام بين الأقلية المسيطرة، وكل من البروليتاريا الداخلية والخارجية، إلى جانب محاولتها أيضاً إقامة علاقات مع الحضارات الأخرى.

وتظهر هذه الفكرة كما يعتقد "توينبي" في مفهوم المؤسسات التي تضم في جنباتها كل مناحي الحياة السياسية والدينية للمجتمع الذي تقوم فيه هذه المؤسسات. ويعد "توينبي" الكنيسة هي التجلي الأكبر على تبلور المؤسسة الكبيرة أو العالمية، لما للعامل الديني من أثر كبير في محاولة توحيد المجتمع بعد تعرضه للانهيار.

سابعاً: فكرة المجتمعات التي كانت متمدنة ثم بادت أو تحجرت :

يضرب لنا "توينبي" أمثلة لهذه المجتمعات التي كانت متمدنة ثم بادت أو تحجرت كالحضارة السومرية والحضارة الحيثية والحضارة البابلية والحضارة الأنديانية والحضارة المكسيكية والحضارة المصرية. ويحلل" توينبي" الحضارة المصرية، فيرى أن الحضارة المصرية، هي إحدى الحضارات التي كانت متطورة ثم تحجرت أو بادت، وبالتالي يعني ذلك أن الحضارة المصرية ليس لها ابن يرثها ويتخذ منها أباً، بناءً على فكرة "الأبوة والبنوة" . وأنه لا يوجد اليوم من يمثلها من البشر، ولم يتبق شيء من ملامحها العريقة، اللهم إلا "أبو الهول" وأهراماتها العجيبة التي مازالت ماثلة حتى اليوم، شاهدة على عظمة وعبقرية صانعي هذه الحضارة العظيمة.

نظرية التحدي والاستجابة:

يذهب "توينبي" إلى أن الحضارة هي الوحدة الحقيقية لدراسة التاريخ، ويعتبر هذا المبدأ بمثابة حجر الأساس في منهجه التاريخي، ويعني هذا المبدأ أن الحضارة بأسرها، هي الوحدة الأساسية للدراسة التاريخية، ولذلك انتقد "توينبي" المؤرخين الذين اتخذوا من الأمم أو الدول القومية مجالاً لدراساتهم التاريخية. والحضارة في نظره هي حصيلة الظروف الصعبة لا السهلة، فهي التي تستثير في الأمم قيام الحضارات، لان السهولة عدو الحضارة وهذه النتيجة الهامة اتخذ منها "توينبي" قاعدة عامة تشمل كل الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها. ومن هنا فإن رؤية "توينبي" لصيرورة التاريخ تقوم على مبدأ التحدي، وأن قيام الحضارات أو أفولها ناجم عن طبيعة الاستجابة لذلك التحدي.

لقد أولى "توينبي" ما أسماها "الفئة المبدعة" دورا حاسماً في عملية تشكيل الحضارات، إذ أنها الفئة الوحيدة التي تضطلع بمهمة صنع الحضارات، وأما عامة الناس فما عليهم إلا اقتفاء أثر المبدعين ومحاكاتهم. فالتحدي إذاً هو نقطة البدء في عملية التحول الحضاري، و"الفئة المبدعة"

هي الجهة المنوط بها مهمة التعامل مع التحديات وبلورة الاستجابات المناسبة لها، وبالتالي فهي صانعة الحضارة. وكما ربط "توينبي" بين الفئة المبدعة ونشأة الحضارات رباط العلة بالمعلول، فقد ربط أيضاً انهيار الحضارات بهذه الفئة، وجعلها المسؤولة عن انهيارها حينما تفقد هذه الفئة مقومات الإبداع وتتحول إلى فئة مستبدة عاجزة عن الخلق والابتكار.

ويعني التحدي وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان في بناء حضارته، وتكون استجابته إما ناجحة إذا تغلب الإنسان على هذه المصاعب، أو استجابة فاشلة إذا عجز الإنسان على مواجهتها.

أنواع التحديات:

أولا: التحدي الطبيعي: إذ قد يواجه المجتمع تحديا طبيعياً مثل مواجهته لظروف صعبة تتمثل في بيئةٍ طبيعية قاسية، لا بل يمكن أن تشكل البيئات الطبيعية الصعبة الحافز الأكبر نحو الحضارة، وربما ازداد هذا الحافز قوة بازدياد البيئة صعوبة، وقد يستحث هذا التحدي الإنسان على تغير موطنه، أو تعديل بيته، الأمر الذي قد يؤدي إلى استثارة قوى الإبداع فيه. وإذا ما عجز عن مواجهة هذا التحدي فأن الانقراض سيكون جزاء إخفاقه، كالإخفاق في الاستجابة لتحدي الجفاف مثلا.

ثانيا: تحدي الوسط أو التحدي البشري: إذ قد يكون الحافز أو التحدي ناتجاً عن الضربات الخارجية أو الداخلية، فقد يحد ث أن تنهزم أمةٌ ما، فتمثل هذه الهزيمة صدمة قاسية لها، وتحدياً لها، فإذا استطاعت تلك الأمة أن تستجيب لهذا التحدي بنجاح فإنها تستثير طاقاتها الإبداعية الكامنة، فتنهض مدافعة عن نفسها، وحضارتها. ويضرب "توينبي" مثلا لذلك بما حدث في الشرق الأوسط حيث تعرض لتأثيرات حضارية تتنافى مع طبيعته، وقد تمثل ذلك في خضوعه لتأثيرات الحضارة اليونانية بفعل الاحتلال اليوناني ثم الروماني، وتمثلت استجابة سكان الشرق الأوسط لهذا التحدي الوافد من الخارج باعتناق الإسلام، واندفاع المسلمين لاسترداد مجد الشرق الأوسط الذاوي، وترتب على ذلك استرداد المنطقة لشخصيتها التي أهدرها العدوان الثقافي الهليني أجيالا طويلة، فأصبحت المدن الإسلامية مراكز الحضارة الإسلامية الزاهرة.

أنواع الاستجابات:

أولا: قد يكون التحدي ضعيفا عاجزاً تماماً عن خلق استجابة ناجحة في الطرف الآخر.

ثانياً: قد يكون التحدي بالغ القوة بحيث يحطم روح الاستجابة في الطرف الآخر.

ثالثا: أن يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة في الطرف الآخر، وهذه هي وحدها الاستجابة الناجحة.

أسباب سقوط الحضارة:

أولاً: فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة فيها، وانقلابها إلى سلطة تعسفية، فالفارق الأساسي بين مرحلتي النمو والسقوط هو أن الأقلية الحاكمة تكون في المرحلة الأولى قادرة على القيام بالردود الناجحة المستمرة على سلسلة من التحديات المتجددة، ولكنها في المرحلة الثانية تبدو عاجزة عن القيام بهذه المهمة، ولذلك نراها تنقلب إلى أقلية مسيطرة تحاول الحفاظ بالقوة على مركزها القيادي الذي لم تعد تستحقه.

ثانيا : تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة بالقوة، وكفها عن محاكاتها بعد أن فقدت هذه الأقلية مبررات الاقتداء.

ثالثاً: فقدان التماسك الاجتماعي بسبب انشقاق الخارجين أو الذين يسميهم "توينبي" "البروليتاريا الخارجية"، أو سخط المحكومين الذين يسميهم "البروليتاريا الداخلية"، ويحدث انفصال الأكثرية عن الأقلية، ويبدأ ما يسميه "توينبي" زمن الاضطرابات، إذ تنشأ الفتن المحلية داخل المجتمع الواحد فتفكك الوحدة الاجتماعي، وتنهار الحضارة.

ويعزو "توينبي" فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة الإبداعية إلى الأسباب التالية:

١- عجز الأقلية الحاكمة عن توليد محاكاة التقدم ومسايرة التطور: وبسبب ذلك تعمد إلى إعادة المقولات التي كانت سبباً في تقليد الأكثرية المحكومة لها، الأمر الذي سوف تفقد معه موالاة تلك الأكثرية لها، وتكف بالتالي عن المشي خلفها وتأييدها. فتنتهج في سبيل ذلك أساليباً قسرية. فيحدث كثيرا أن تصاغ الأنظمة الجديدة في قوالب قديمة، وهذه طبيعتها كطبيعة كل قديم في مقاومته للجديد، الأمر الذي يؤدي إلى تفكك النظام أو فقدان وجه الإبداع والأصالة فيه، ومن أمثلة ذلك أن التصنيع وهو نظام جديد كفيل برخاء المجتمع قد صيغ في نظام الرق الإقطاعي فأصبح العمال في النظام الرأسمالي كالرقيق في النظام الإقطاعي فضاع معنى التقدم في التصنيع، وهو أمر قد يؤدي إلى تنامي الشعور بالتذمر داخل صفوف الطبقة العاملة وبالتالي يمكن أن يكون سبباً في نشوب فوضى قد تتطور فتشكل قوة مضادة للأقلية الحاكمة.

٢- جمود المبدع وافتتان الجماهير به: يقتضي الإبداع أن تظل الطاقات الكامنة في حالة تفجر مستمر للقوى الخلاقة حتى بظل على حالةٍ من الجدة والأصالة. ولكن حين يعجز عن مواصلة التحديات، فسوف يكون سر توفيقه في مرحلة صعوده حين رفعته الجماهير عقبة في الاستمرار في الإبداع، فتتجدد الظروف وليس لديه ما يقدمه للجماهير إلا أن يستعيد لهم مواقفه السالفة، بينما الاحتياجات متجددة وهو غير قادر على أن يقدم لهم إبداعاً جديداً، إضافة إلى أنه سوف يقاوم ظهور كل مبدع جديد من الجيل الثاني، وهكذا يصبح المبدع في الطور الأول في طليعة معارضي من يحتمل قيامه بالاستجابة الناجحة في الطور الثاني، وتلك آفة الإبداع. ومن الأمثلة على ذلك هو خُلد المماليك في مصر إلى نفس الأسلوب التكنولوجي الحربي القائم على

الفروسية بعد أن هزموا الصليبيين وأسروا لويس التاسع وانتصروا على التتار مما أدى إلى فشل تكتيكهم الحربي أمام المدافع التي نصبها "نابليون".

٣- الحرب نزعة انتحارية والتوسع الخارجي مظهر تدهور وانحلال: يعبر التوسع الحربي عن تدهور في المجتمع، كما إن قيام الإمبراطوريات يعدُّ تغطية على حالات اضطرابات وتسكين لسخط الجماهير ونقمتها، والباعث السياسي للحرب يتسق مع الباعث النفسي، إذ النزعة الحربية تعبير عن شهوة التدمير، وتبعاً ذلك فقد لازمت الحروب تاريخ الحضارات، غير أن هذا التلازم لا يحول دون إدانتها سواء على المستوى الفردي أو الجمعي، النفسي أو السياسي، أما المستوى الفردي النفسي فهي مظهر إخفاق النفس البشرية في الارتفاع إلى المستوى البشري اللائق بالبشر، فهي تردٍ للنفس إلى حالة بدائية ونزعة بربرية، أما المستوى السياسي فإن الدول التي قامت على أسس حربية قد أدت بها هذه النزعة إلى الفناء، وهو فناء الانتحار لا فناء الموت الطبيعي.

٤- التقدم المادي كمسلك خداع لاستجابة ناجحة: ليس التوسع الحربي هو وحده المظهر الخداع للتقدم والارتقاء، وإنما تشترك معه سيطرة الإنسان على البيئة المادية في شكل تحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادي، فهو بدوره ليس دليلاً على رقي المجتمع إذ قد يحدث ذلك في مرحلة تدهور المجتمع لأن الأسلوب التقني آلي تطبيقي وليس من الضروري أن يصاحب الإيداع الروحي والفكري وجودا وعدما، فالارتقاء الحقيقي للحضارة إنما يتمثل في الارتقاء الروحي.

المصادر:

١- توينبي، ارنولد ، بحث في التاريخ ، ترجمة طه باقر ، بغداد، ١٩٥٥.
٢- توينبي، ارنولد ،العالم والغرب، ترجمة عبدالواحد الانباري، مصر ، الدار القومية للنشر، د.ت.
٣- توينبي، ارنولد ،العالم والغرب، ترجمة عبدالواحد الانباري، مصر ، الدار القومية للنشر، د.ت.
٤- خوري، فتح، التاريخ الحضاري عند توينبي، بيروت، ١٩٦٠.
٥- ولسن كولن،سقوط الحضارة ،ترجمه انيس زكي ،بيروت ،١٩٥٩.